تقديم

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على سيدنا «محمد» عبده الكريم، ورسوله الرحيم، وصفيه الحليم، ونجيه الأمين، ذي الآيات الصادقات، والمعجزات الباهرات، والبراهين القاطعات.. أرسله موطداً للإسلام، ومسدداً للأنام، ومكسراً للأصنام، ومبيناً للشرائع والأحكام.. فبلغ الرسالة؛ وأدى الأمانة امتثالاً لأمر ربه، وبعد..

فقد كانت أول إطلالة لي على الأدب الإفريقي في عام 1985م عند زيارتي لبلاد إفريقيا فيما وراء الصحراء، ولا سيما جمهورية مالي.. فكانت لقاءاتي مع أدباء تلك المناطق في ليالي «تنبكت» و«جاو» المقمرة، وعلى رمالها الذهبية الساحرة، سبيلاً للحديث عن أدب الصحراء وتنوع ينابيعه وأغراضه.. ذلك الأدب العريق الذي استمدّ قوته من شعر ما قبل الإسلام، ومن بطولات الآباء والأجداد في هذه المنطقة من إفريقيا.. فأحسستُ بحنين يشدني، وعزة ترقى بي إلى عنان السماء. كما توصلتُ إلى معلومات غاية في القيمة؛ تؤكد الامتداد الطبيعي والحضاري لأبناء القارة الواحدة. وكم كنت متعطشًا لمثل هذه المعلومات!

ومن حسن حظي أن جمعني الله بنخبة من أدباء ومؤرخي السودان الغربي (غرب إفريقيا).. ففي مدينة «جاو»؛ التقيت بالعالم والأديب الجليل «محمد الطاهر العلوي» ـ مدير مدرسة سبيل الإسلام لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، ومدير دار «معمر القذافي» لجمع التراث العربي الإفريقي ـ ونزلت ضيفًا عليه، وقد استفدت منه كثيراً، حيث رافقني في رحلاتي الصحراوية ـ التي كانت فرصة ذهبية لِلتَّزُّودِ العلمي ـ وعرَّفني بكل منطقة مررنا بها. كما التقيت في مدينة

«تنبكت» بنخبة من أدبائها؛ وعلى رأسهم الدكتور «محمود الزبير» (مدير مركز أحمد بابا التنبكتي)، والأديب وشاعر الصحراء «عادل محمود الأرواني» ـ الذى يُعَدّ أديبًا من الطراز الأول ـ واطلعت على جزء من أشعاره. كما التقيت في «باماكو» بالأديب «كادي درامي» الذي كان خير معين لي.

هؤلاء الأصدقاء ـ وغيرهم من الأحباء ـ حفوني برعاية خاصة على رمال الصحراء الذهبية، فكانوا يجاذبونني أطراف الحديث عن التاريخ المشترك، ويضربون لي المثل بالقبائل الليبية والمغربية التي لها امتداد في جنوب الصحراء. كما كانوا يمتعونني بأحاديثهم الطريفة عن الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الواحدة، ثم عن المآثر الحضارية العربية الليبية المغربية.. ويشير لي الأصدقاء بأصابعهم إلى حي «الغدامسية» القريب من جلستنا الشعرية، وإلى «قصبة المغاربة»، و«جامعة سنكري» التي شيدتها أيْدٍ ليبية مغربية على الطراز المغربي الإسلامي.

وقد كنت فخورًا بهذا الامتزاج الحضاري، وحزينًا في نفس الوقت على هذا الانقطاع بين أبناء القارة الواحدة ذات التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة. وكم تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بي الزمن إلى الوراء قليلاً لأنظر، ولو للحظة واحدة، إلى تلك الفترة الزاهرة من تاريخ هذه القارة. وكم لعنت الاستعمار الذي نصب نفسه وَصِيًّا وقاضيًا وشرطيًّا بيننا.. فقسم أرضنا تقسيمات قزمية، وفصل بيننا بحدود واهية، وبث فينا روح التفرقة والعصبية، فهذا أسود وذاك أبيض والآخر أصفر إلخ.. وأمر مثقفيه بإصدار دراسات واهية مثل خيط العنكبوت؛ ليؤكد من خلالها على أن هذه الشعوب لا يمت بعضها للبعض الآخر بصلة، فليس لها تاريخ ولا عادات ولا تقاليد مشتركة!.. وأنفق الأموال الطائلة على ذلك من أجل تأكيد تلك المفاهيم الخاطئة التي تسعى إلى محو شخصيتنا الإفريقية المستقلة، ليتربع هو على كرسي الحكم؛ ونبقى نحن عبيدًا تابعين له؛ لأنه نجح ـ للأسف ـ في تفريقنا بعد أن أدرك أن في وحدتنا قوة تهز أركان عرشه، فطبق شعاره على أبناء القارة الواحدة (فرِّق تَسُدْ).. وفعلاً ساد. ولذلك نجده يحرص في كل زمان

ومكان على تنمية النعرات القبلية؛ وخلق فكرة الأقليات الواهية حتى بين أبناء الشعب الواحد، فيقول: هذا بربري لا يمت للعروبة بصلة.. وهذا عربي.. وذلك طارقي من أصل أوروبي.. والآخر فلاني من أصل يهودي.. وهو يعلم علم اليقين بأن هؤلاء عربٌ !

وللأسف؛ فإن كثيرًا من كتابنا العرب والأفارقة أخذوا مثل هذه الأفكار على علاتها ـ دون تمحيص لها ـ ونسجوا على منوالها، وبذلك قدموا خدمة جليلة للاستعمار بأن أكدوا أفكاره! وليس لي ما أقول عن هؤلاء إلا أنه تقليد أعمى؛ وتربية استعمارية؛ وعقدة الرجل الأوروبي. كما أريد أن أقول: إن إفريقيا بكر للدراسات، سواء أكانت تاريخية أو أدبية أو علمية، إذ لم تحظ من قِبَل أبنائها بدراسات معمقة، اللهم إلا شذرات لا تشفي غليل الباحث. وتراثها الثقافي تلتهمه أرضة الأرض في بيوت أهلها المبنية بالطين دون أي اكتراث من قِبَل حكامها وأبنائها! ورجل الصحراء يبحث عن قوته اليومي في ظل الفقر الذي فرض عليه ولا وقت له للبحث عن التراث الثقافي الذي يضيع يومًا بعد يوم. وبالرغم من المحاولات الجادة لمركز «أحمد بابا التنبكتي» بمدينة «تنبكت»، ودار «معمر القذافي» لجمع التراث العربي الإفريقي بمدينة «جاو»، إلا أن حجم العمل أكبر من ذلك، فالإمكانيات المتواضعة لهذين المركزين غير كافية للنهوض بالواجب المنوط بهما.

والدارس للتراث الإفريقي يلمس حقائق تؤكد أصالة وامتدادات الشعوب الإفريقية واتصالها بعضها ببعض، كما تؤكد التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة؛ فلا نلمس فرقًا كبيرًا في الأدب الشعبي الليبي والمغربي عما هو موجود في جنوب الصحراء، فالإيقاع واحد، والكلمات تحمل نفس المضمون وإن اختلفت الألفاظ.. والذي يتغنى به الشاعر الليبي يتغنى به شاعر «تنبكت» و«جاو» و«جني» و«أقدز» و«كانم» و«برنو»، وإذا ما أخذنا مثالاً قريبًا منا نلمسه يوميًّا وطبقناه على ما يجري في جنوب الصحراء؛ لأدركنا الأمر بشكل واضح وجلي.. فأكلة «الكسكسي» الشعبية التي تطبخ في الجماهيرية الليبية والمغرب وتونس والجزائر؛ تطبخ في «تنبكت» و«جاو» بنفس الطريقة.. وقد أكلت هذه الأكلة في

بيت أحد الأصدقاء بـ «تنبكت» و «جاو» ولم أجد أي اختلاف يذكر. وهذا مثال حي على الامتداد الطبيعي لهذه الشعوب التي تشكل ائتلافًا فيما بينها. فـ «أولاد اسليمان»، و«العلاونة»، و«أولاد ناصر»، و«أولاد موسى» وغيرهم من التفرعات القبلية لهم جذورهم في ليبيا والمغرب. و«الغدامسية» وحيهم الجميل بمدينة «تنبكت» شاهد على ذلك، و«الطرابلسية» وأسرة «ضياء» التي اتجهت من بين مئات الأسر من طرابلس الغرب في القرن الحادي عشر الميلادي - أي زمن «أبي إسحاق الاجدابي» الذي شهدت فيه طرابلس أزهى فتراتها الثقافية - ذهبت هذه الأسرة إلى غرب إفريقيا لنشر العروبة والإسلام، وقد تقلد أحد أبنائها سُن علي[1] (أي بمعنى حامي السنة) مقاليد إمبراطورية «سنغاي» التي كانت تمتد من موريتانيا إلى نيجيريا، وقد قاد إمبراطوريته إلى المجد حتى وصل صيتها إلى أوروبا وعرفت لدى الشرق والغرب. وإن دل هذا على شيء؛ فإنما يدل على الامتزاج الحضاري الواحد لأبناء القارة الواحدة.

أضف إلى ذلك؛ اصطحاب الملك «منسا موسى» - ملك «مالي» في القرن الرابع عشر الميلادي - للمهندس الليبي «عبد الله الغدامسي»، وبنائه صحبة المهندس «أبو إسحاق الساحلي» جامعة «سنكري» على الطراز المغربي الإسلامي. كذلك فإن وصول المهندس الليبي «عبد الله الغدامسي» إلى أرفع المناصب لدى سلطان «مالي» بأن أصبح مستشاره الأول، ماهو إلا دليل على مكانة الليبيين في نفوس حكام وأبناء جنوب الصحراء، وماكان عليه هؤلاء من الحكمة والعلم والدراية حتى أصبحوا مستشارين لهم.

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن إسلام ملك «غانة» الوثني ورعيته على يد الداعية الليبي «علي بن يخلف النفوسي» عام 1157م لَدليلٌ آخر على عمق الصلات، وتبحر أبناء ليبيا في العلم وقدومهم من بيئة ذات حضارة زاهرة. كذلك.. لا يفوتنا أن نشير إلى الجغرافي الشهير «الحسن الوزان» - المعروف بـ «ليون الإفريقي»

(1) سن: لفظ أطلقه أهل السودان الغربي على الأسر الرفيعة ذات المستوى الحضاري المحمود. انظر؛ محمود كعت: تاريخ الفتاش - باريس، نشر هوداس وبنوه .

ـ صاحب كتاب «وصف إفريقيا» الذي يعد أعجوبة عصره.. هذا الجغرافي كانت دراسته الأولى في «فزان» بليبيا.. وبالاعتماد على دراسته دخل الأوروبيون إلى غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي، وقد كانوا ـ لجهلهم ـ يطلقون عليها القارة المظلمة!

إن كل هذه الشواهد الدامغة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الإفريقية المسلمة؛ لَتدحض افتراءات الأوروبيين المستعمرين؛ ومحاولتهم طمس هذه المعالم بزعمهم أن سبب تأخر الأفارقة هم العرب! ولكن كلمة أقولها: نحن أبناء هذه القارة يربطنا ببعضنا تاريخٌ وعاداتٌ وتقاليدٌ ولغة. فاللغة الفلانية والهاوسية والسواحلية؛ أربعون في المائة (40٪) من مفرداتها عربية.. الأمر الذي يؤكد أننا لسنا دخلاء على إفريقيا.. فإفريقيا للإفريقيين، ولاحلف لإفريقيا إلا مع نفسها.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا تندرج ضمن سلسلة من الدراسات التي نقدمها عن منطقة غرب إفريقيا.. وفيها أشعار لأدباء أفارقة كتبوها باللغة العربية الفصحى.. ومنهم من هو من أصول ليبية. وهذه الأشعار تؤكد عمق الترابط الحضاري وتَجَذُّر اللغة العربية بين أبناء تلك المناطق، فالعروبة أسبق من الإسلام هناك.

ونستسمح القارئ على الإغفال المتعمد لأحد فنون الشعر الصحراوي ـ وهو الغزل ـ لحاجة في نفسي.

وكلمة أخيرة أقولها للشباب الإفريقي: ياشباب إفريقيا الناهض الوثاب؛ قم من سباتك، وكسر القيود، وحطم الأغلال، وتسلح بسلاح العلم والإيمان، حتى تعود بقارتك إلى شاطيء الأمان موحدةً باسم الولايات المتحدة الإفريقية.

د. الهادي المبروك الدالي